اقبس من انوار سورة الاخلاص

الدكتور عبد السلام محمد الذهبي

(بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد).

هذه هي السورة الثانية عشرة بعد المائة من سور القرآن الكريم . وقد اشتهرت بهذا الاسم (سورة الاخلاص) لكن المفسرين ذكروا لها كثيرا من الأسماء، حتى وصل البعض بأسمائها إلى العشرين .

ومعلوم أن كثرة الأسماء لشيء واحد تؤذن بشرف ذلك المسمى وحق لهذه السورة أن تحظى بمثل ذلك الشرف ، وكيف لا ؟ وقد اشتملت على أهم مبحث من مباحث الرسالة مبحث التوحيد، حتى قيل بناء على ما اشتملت عليه لنها تعدل ثلث القرآن . وذلك أن القرآن قد احتوى على الدعوة إلى توحيد الله . ثم جاء بالشريعة التي يصلح بها حال الناس ، وأخبر عن اليوم الآخر ومايكون فيه ، ولما كانت هذه السورة على إيجازها تدل على الركن الأول والمقصود الأهم ، استحقت من أجل ذلك أن يقال أنها تعدل ثلث القرآن .

وإني هنا أثبت بعضا من أشهر أسماء تلك السورة فمن اسمائها سورة التوحيد ، وسورة التجريد ، وسورة النجاة ، وسورة النسبة ، ولما جاء في بعض أسباب النزول ان الكفار قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك ، وتسمى سورة الأساس لاشتمالها على أصل الدين .

وجاء في الكشاف رواية عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه

قال (أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد) يعني ما خلقت إلا لتكون دالا على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة اه

وعقب صاحب الانتصاف على رفع ذلك الحديث فقال : انه لم يجده مرفوعا وقال : أخرجه ابن أبي شيبة في فضائل القرآن من رواية عبد الله ابن غيلان الثقفي عن كعب الأحبار موقوفا . اه

وقد اختلف في هذه السورة ، هل هي مكية أو مدنية ؟ قيل بكل ولعل السبب في هذا الاختلاف في سبب النزول . فلقد قيل أن سبب نزولها أن سائلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه ، لكن في تحديد ذلك السائل وقع الخلاف فذهب البعض إلى أن السائل هو مشركو مكة ، وعلى هذا مكية ، وقيل أن السائل إنما هم اليهود وعلى هذا فالسورة مدنية ، ولنذكر هنا ما نقله السيوطي في أسباب النزول فيه يتضح الموقف .

يقول السيوطي : أخرج الترمذي والحاكم وابن خزيمة من طريق أبي العالية ، عن أبي بن كعب ، أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنسب لنا ربك ، فأنزل الله (قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

وأخرج الطبراني وابن جرير مثله من حديث جابر بن عبد الله ، فاستدل بها على أن السورة مكية .

واخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس ان اليهود جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم منهم كعب بن الأشرف ، وحيي بن اخطب ، فقالوا : يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله (قل هو الله احد) إلى آخرها واخرج عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله ، فاستدل بهذا على انها مدينه .

وأخرج ابن جرير عن أبي العالية ، قال: قال قتادة : قالت الاحزاب : أنسب لنا ربك ، فأتاه جبريل بهذه السورة ، وهذا هو المراد بالمشركين فى حديث أبي ، فتكون السورة مدنية كما دل عليه حديث ابن عباس، وينتفى التعارض بين الحديثين .

لكن أخرج أبو الشيخ فى كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال: أتت يهود خيبر الى النبي ﷺ ، فقالوا : يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون ، وابليس من لهب النار ، والسماء من دخان ، وارض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك . فلم يجبهم ، فأتاه جبريل بهذه السورة (قل هو الله احد) ومن هذا الذى نقله الإمام السيوطى يتبين أن هناك روايات تعزو سبب النزول الى سؤال المشركين وبذلك تكون السورة مكية ، وبعض الروايات ترى أن السبب سؤال اليهود فتكون السورة مدنية . كما أنه ذكر وجها للتوفيق بين الرأيين وذلك بتفسير المشركين بالاحزاب لما جاء فى بعض الروايات وعليه فتكون السورة مدنية حيث أن الاحزاب كان سؤالهم فى المدينة .

ويرى الإمام محمد عبده فى تفسيره لجزء عم بعد أن ذكر أن أم أركان الرسالة ثلاثة : التوحيد ، الشريعة ، أحوال الناس بعد الموت : يقول بعد ذلك : وأول هذه الاركان هو التوحيد والتنزيه لاخراج العرب وغيرهم من الشرك والتشبيه ، وهو ركن الاركان ، وأول مأمور به من أصول الايمان.

فيصح أن يكون الامر بتبليغ ما فى هذه السوره صادرا من الحق جل شأنه تحقيقا لامر رسالته ﷺ — ، ولإرشاد الناس ما يجب أن يعتقدوه فى جانب الله .

ولا حاجة الى أن يسأل بعض العرب النبي ﷺ ما هو نسب الله ؟ حتى تنزل السورة جوابا لهذا السؤال . وانما حاجة القوم — بل العالم الانسانى

كانت ماسة الى بعثة النبي ﷺ لدعوة المشركين من العرب وأهل الكتاب فى سورة واحدة وتعريفهم بالله فى أوجز عبارة وأجزلها.

وبهذا يرى الإمام أن السورة نزلت للحاجة اليها، ولم يكن النزول مسببا عن سؤال سائل، ولما كان التوحيد هو أول ما يأتى به الرسل وما يطلبونه من أممهم فالظاهر على ذلك أن السورة مكية.

أما فضل تلك السورة فقد وردت فيه أحاديث كثيرة منها ما رواه الترمذى والنسائى والحاكم عن النبي ﷺ انه سمع رجلا يقرأ (قل هو أحد) فقال: وجبت، قيل: ما وجبت يارسول الله، قال: وجبت له الجنة).

أما مناسبة هذه السورة لما قبلها فانه لما تقدم فى التى قبلها ذكر عداوة أقرب الناس اليه وهو عمه أبو لهب وما كان يقاسى من عباد الاصنام الذين اتخذوا مع الله آلهة جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عبادة الاوثان والقائلين بالثنوية والتثليث اه.

ولنعد الى السورة الكريمة لنحاول تجلية ما جاء فيها. وما جاء فيها من التوحيد لله عز وجل، والتوحيد هو أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك الى الله عز وجل قال تعالى (لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره)(١).

وقال هود عليه السلام لقومه (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره)(٢).

وقال صالح عليه السلام لقومه (اعبدوا الله ما لكم من اله غيره)(٣).

---

(١) الاعراف ٥٩ (٢) الاعراف ٦٥
(٣) الاعراف ٧٣

وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)(١) .

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى إليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون)(٢) .

وجاء فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال (أمرت أن اقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله) .

فالتوحيد على هذا هو أول الامر وآخره . والتوحيد الذى دعت اليه الايات والاحاديث إنما هو توحيد الالهية وذلك ان التوحيد نوعان . توحيد الربوبية ، وتوحيد الالهية أما الاول أعنى توحيد الربوبية ، فهو الاقرار بان الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء وانه ليس للعالم صانعان متكافئان فى الصفات والافعال وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو مركوز فى النفوس حتى انه لم يذهب الى نقيضه طائفه معروفة من بنى آدم، يدل على هذا ما جاء فى الحوار الذى دار بين سيدنا موسى عليه السلام وفرعون الذى لم يعرف عن أحد غيره انه قال : أنا ربكم الاعلى .

يقول تعالى على لسان فرعون مخاطبا سيدنا موسى عليه السلام (قال فرعون وما رب العالمين) يقول ذلك على وجه الانكار ، فيرد عليه موسى عليه السلام (قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب ، وما بينهما ان كنتم تعقلون)(٣) .

---

(١) النحل ٣٦ (٢) الانبياء ٢٥

(٣) الشعراء ٢٤ — ٢٨

فالناظر فى هذه الآيات يجد أن سيدنا موسى عليه السلام يرد على تجاهل فرعون للربوبية بأن ينبهه الى ما هو معلوم عنده . ومقر به لديه ، لذلك نراه يقول فى الاجابة أن من تسأل عنه هو رب السموات والأرض وهو ربكم ورب آبائكم الأولين ، وهو رب المشرق والمغرب ، ولو لم يكن كل ذلك مسلما ومعروفا ومصدقا به من المخاطب لما صلح أن يكون جوابا .

ويؤيد ذلك ما حكاه الله على لسان سيدنا موسى فى سورة الاسراء وهو يوجه كلامه الى فرعون (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا)(١) .

وقال تعالى عنه وعن قومه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)(٢) .

وحتى المجوس القائلين بأن للعالم إلهين النور والظلمة لم يسووا بينهما بل جعلوا النور خيرا ، والظلمة شراً . ففضلوا أحدهما على الآخر وبهذا يكونون لم يجعلوا للعالم إلهين متساويين .

والشاهد على أن الاعتراف بالخالق له الواحد الأحد أكبر من أن تحصى . يقول الله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)(٣) .

ويقول جل وعلا: (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون)(٤) .

فتلخص مما سبق أن وحدة الربوبية أمر مقرر ، ثابت فى أعماق النفوس لا ينكره الا جاحد أو معاند تأبى عليه كبرياؤه أن يقول الحق ولو كان قلبه معترفا به .

---

(١) الاسراء ١٠٢ (٢) النمل ١٤
(٣) لقمان ٢٥ (٤) المؤمنون ٨٤ ، ٨٥

ويحكى عن أبى حنيفة رحمه الله : أن قوما من أهل الكلام أرادوا البحث معه فى تقرير توحيد الربوبية . فقال لهم أخبرونى قبل أن نتكلم فى هذه المسألة عن سفينة فى دجلة تذهب بنفسها فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيره بنفسها : وتعود بنفسها فترسوا بنفسها ، وتفرغ وترجع كل ذلك من غير أن يديرها أحد ؟ فقالوا : هذا محال لايكون أبدا فقال لهم : إذا كان هذا محالا فى سفينة فكيف فى هذا العالم كله علوه وسفله اهـ وتحكى هذه الحكاية أيضا عن غير أبى حنيفة(١) .

فلم يبق بعد ماتقدم إلا القول بأن التوحيد الذى جاءت به الرسل إنما هو توحيد الإلهية . الذى هو : افراد المعبود بالعبادة وعدم اشراك أحد معه فيها .

والقرآن الكريم فى كثير من آياته يحدد ذلك المعنى ويبرزه ويأمر به وفى سورة الإخلاص صورة كاملة واضحة لذلك التوحيد المطلوب للإله فهى تتحدث فى آياتها عن مظاهر الوحدة وأدلتها .

(قل هو الله أحد) فقد أخبر المولى عز وجل عن نفسه فى هذه الآية بأنه (الله) وذلك يستدعى أن يتصف بكل الصفات الثبوتية ، فإن معنى لفظ الجلالة المعبود بحق ولا يمكن أن يكون المعبود بحق إلا حيا سميعا بصيرا متكلما قادرا مهيمنا عالما ، إذ أن فقد صفة من تلك الصفات يلحق بمن فقدها النقص ، والناقص لايكون إلها معبودا إذ كيف يتأتى منه الخلق والرزق والإحياء والإماتة وكل شؤون الملك وهو فى حاجة إلى من يكمل نقصه .

فلفظ الجلالة على هذا قد دل على كل صفات الكمال .

---

(١) العقيدة الطحاوية ص ٢٣ .

أما لفظ (أحـــد) فإنه نفى الكثرة عنه جل وعلا من كل الوجوه ، فلا تكاثر فى الذات على معنى أنها مركبة من أجزاء وذلك لأن المركب محتاج إلى أجزائه والمحتاج لا يكون إلهاً كما أنه لا عدد فى الذات من وجه آخر . على معنى أن تكون هناك ذات أخرى لها مثل ما للذات الأقدسة ، وذلك لأنه لو كان هناك إلهان لامكن بينهما التمانع ، ومثال ذلك أن يريد أحدهما حركة جسم مثلا ويريد الثانى سكونه ، فأما أن ينفذ مرادهما معاً أو لا ينفذ مرادهما معاً أو ينفذ مراد أحدهما دون الآخر ، ولا شيء وراء ذلك وكل هذا باطل .

أما بطلان: الأول وهو أن ينفذ مرادهما معاً فلما يلزم عليه من اجتماع الحركة والسكون معاً وهو محال ، إذ أن ذلك جمع بين الشيء والمساوى النقيض .

وأما بطلان الثانى وهو عدم حصول مرادهما معاً كذلك محال ، لأنه يلزم عليه خلو الجسم عن الحركة والسكون وذلك لا يتأتى لما سبق أنهما هما النقيض والمساوى له ، وهما لا يجتمعان ولا يرتفعان .

أما بطلان الثالث وهو أن ينفذ مراد أحدهما دون الآخر فلان من لم ينفذ مراده ثبت عجزه والعاجز لا يكون الها أما من نفذ مراده فإن فرض أنه كان مثلا للآخر فقد سرى العجز من العاجز إليه حيث أنهما مثلان ، وما يجوز على أحد المثلين فهو جائز على الآخر .

أما أن قيل أن القادر ليس مثلا ولا نظيراً للعاجز لأنهما مختلفان من الأصل فإنا نقول : كلامكم الأول إذن غير صحيح أنكم كنتم تفرضون المثلين .

أما وقد أقررتم بأن أحدهما عاجز ، فالثانى أن كان مستكملا لكل صفات الألهية فهو الله الحق ، وإلا فما زعمتموه من وجوه الهين باطل ،

ولا يصلح أحدهما مادام يلحقه النقص والعجز ولترجع إلى إلا له الواحد الأحد .

فلفظ أحد على هذا استلزم اتصاف الله بالصفات السلبية فهو واحد ووحدته تدل على قدمه وبقائه ومخالفته للحوادث وقيامه بنفسه فكل هذه الصفات تقتضيها الوحدانية، إذ أن الحادث والفانى والمشابه للحوادث وغير القائم بنفسه كلهم متعددون .

وإذا قرأنا القرآن وجدناه يؤكد تلك الوحدانية فى آيات كثيرة أقرأ قوله تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا)(١) .

وقوله (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا)(٢) .

ويلفت الأنظار إلى دلائل وحدته فى كثير من الآيات قال تعالى : (وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون)(٣) .

أما قوله جل وعلا (الله الصمد) فذلك كالدليل والتأكيد على ما سبق من وحدانيته ، فالصمد هو المقصود وحده ، ومعنى ذلك أنه هو الغنى وأن الكل إليه فقير ، فهو مقصود من الجميع أى مقصود على الإطلاق فى جميع الحوائج .

وقيل : أن معنى الصمد الذى لا جوف له ، كما قيل : أن تفسير الصمد هو الآية التى بعده وعلى أى تفسير ، الصمد . فإنه وصف لا يكون إلا لله ، فالمقصود فى الحوائج على الإطلاق أو الذى خالف الحوادث حيث لم يكن على شاكلتهم ، لابد أن يكون غيرهم ويكون هو الإله الواحد الديان.

---

(١) الإسراء ٤٢
(٢) الأنبياء ٢٢

ولما كانت الصمدية مسلماً بها من القوم كما تنطق بذلك آيات القرآن قال تعالى :

(وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه)(١) .

لما كان الإقرار منهم بأن الله هو المقصود وحده جاء النظم الكريم بلفظ (الصمد) معرفا حيث أن ذلك مسلم لديهم، أما الوحدانية فلما لم تكن كذلك جاء لفظ (أحد) بالتنكير حتى يقيم لهم الدليل عليه .

يقول الشيخ الإمام محمد عبده فى تفسير (الصمد).

وقوله الصمد يشعر بأنه الذى تنتهى إليه الطلبات بدون واسطة ولا شفيع وهو فى ذلك يدعو إلى مخالفة عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وكثير من أهل الأديان الأخرى يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغياتهم فيلجئون إليهم أحياء أو أمواتاً فيقومون بين أيديهم أو عند قبورهم خاشعين خاضعين كما يخشعون لله أو أشد خشية .

ثم هو الصمد فى تحديد الحدود العامة للأعمال ، ووضع الشرائع فلابد أن يرد إلى ما أنزل جميع ماوقع الإختلاف فيه، وليس من المباح أن يرجع إلى قول غيره متى تطق صريح الكتاب بخلافه وعلى الناس كافة أن يرجعوا إلى الكتاب ، فإذا لم يكونوا عارفين به رجعوا إلى العارف وطالبوه بالدليل منه .

قوله تعالى : (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) .

---

(١) الذاريات ٢٠ ، ٢١

بعد أن تحدثت السورة الكريمة عن أثبات الوحدانية وثبوت الصمدية لله وحده زادت الأمر إيضاحاً فوق إيضاح .

فهى تنفى عنه الولادة أى أن يكون له ولداً، وذلك لأن الولد إنما يتأتى من المجانس بمعنى أن الرجل يأتى بالولد من المرأة التى كانت من جنسه وعلى شاكلته .

ولما كان الله فرداً أحداً فليس هناك من هو على شاكلته حتى يجانسه، ومادامت المجانسة مفقودة فالولادة كذلك ، ثم أنه لماذا يطلب الولد؟ أنه إنما تطلب لأحد أمرين أما للأنتصار به والإعتزاز ، وأما لأجل أن يكون خلفاً لوالده بعـــد الوفاة ، والأمران ممنوعان ، أما الأول فلان الله هو العزيز بنفسه القوى القادر بذاته، فليس محتاجاً إلى ولد يتقوى به ويعتز وأما الثانى فكيف يتصور خلافته وهو الحى الباقى الذى لا يموت (الله لا إله إلا هو الحى القيوم)(١) .

ومادام الاعتزاز بالولد غير وارد وكذلك الموت مستحيل على الله فلا مجال بعد ذلك لأن ينسب إلى الله الولد بل أن ذلك مستحيل ومن نسبه هو محض افتراء على الله .

وفى ذلك رد على النصارى واليهود حيث زعم الأولون أن عيسى بن الله والآخرون إلى ان عزيراً بن الله .

ولقد كذبهم القرآن فى ذلك الزعم حيث يقول (وقالت اليهود عزير

---

(١) البقرة ٢٥٥

ابن الله وقالت النصارى المسيح بن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون)(١) .

فقوله تعالى : (لم يلد) رد على كل من زعم أن لله ولداً أو بنات كما زعم النصارى أو مشركوا العرب الذين جعلوا الملائكة بنات الله وقوله تعالى (ولم يولد) رد كذلك على من زعم أن للإله أبنا يكتسب الألوهية من أبيه ، فيصير مثله إلهاً يعبد كما يعبد ولقد قال بذلك النصارى وحكم الله بكفرهم فى قوله عز وجل (لقـــد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم)(٢) .

إذ كيف يتأتى أن يكون المولود إلها ؟ والمولود حادث ، وإلا له قديم، ثم أن المولود جسم ، والله ليس بجسم .

ولكن بعض من الغى عقله يقولون تلك المقالة ، بل أنهم لا يستحيون وهم يقولون على السيدة مريم عليها السلام أنها أم الرب .

فقوله تعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) الكفو فى الأصل هو المكافىء والمماثل فى العمل والقدرة ، وحينما يقرر القرآن أنه لا أحد كفؤا لله فإنه ينفى بذلك ما يعتقده بعض المبطلين من أن لله نظيراً ومثيلا يعارضه فى أعماله ويعانده فيها ويرون أن ذلك هو الشيطان فيتخذونه إلها يعبدونه، وهم فى ذلك مبطلون .

ولقد فسر البعض هذه الفقرة الأخيرة بأنها تأكيد لما جاء فى أول الآية

---

(١) التوبة ٣٠
(٢) المائدة ٧٢

من نفس المولد عنه جل وعلا . وذلك بتقرير أن الولد كما سبق يأتى من الأنثى التى تماثل الذكر وتكون مكافئة له ولما كان الله لا كفؤ له ، فمن أين تكون الزوجة التى يمكن أن يتأتى منها الولد .

والسورة بهذا النظم المعجز الفريد الوجيز تنفى كل أشكال الشرك وتثبت جميع أصول التوحيد والتنزيه ، فتعالى الله العلى الكبير وإيضاح ذلك أن الشرك إما أن تكون صورته هى اعتقاد وجود إله مع الله ، أو اعتقاد أن هناك من يقصد لقضاء الحوائج سواه أو اعتقاد أن له أباً أو أماً أو أبناً ، أو اعتقاد أن له نداً أو نظيراً والسورة قد نفت كل هذه الأشكال .

وما جاء فى هذه السورة فى هذه الألفاظ الوجيزة قد فصله الله فى سور أخرى مثل قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ، أن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً »(١) .

وقال تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)(٢) .

وقال (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون)(٣) .

---

(١) سورة مريم ٨٨ — ٩٥ (٢) سورة الأنبياء ٢٦ — ٢٧
(٣) سورة الصافات ١٥٨ — ١٥٩